**المحاضرة الأولى: مقدمات أولية ومفاهيم في المنهج والمناهج والمنهجية**

في الحقيقة لا وجود لفلسفة بدون منهج، ولا وجود لمنهج دون تنظير فلسفي، وهو ما عبر عنه جون ديوي بقوله: "إن كل منهج يؤسس ويبنى على فلسفة تربوية معينة"، فتاريخ الفلسفة يكشف بحق عن هذا الارتباط الوثيق بين الفلسفة والمنهاج، إذ لم يفتأ الفلاسفة أن يتبعوا منهاجا أو طرائق في النظر والبحث، بل إن البعض منهم جعل من المنهاج الفلسفي خصوصا محور بحثه واهتمامه، وخصص لذلك كتبا بعينها كما هو الحال مع روني ديكارت وفرانسيس بيكون في مجال العلم.

**أولا: مفهوم المنهج ( لغة واصطلاحا )**

**لغة:** كلمة أو لفظة "المنهج" حسب لسان العرب عبارة عن مصدر مشتق من الفعل الثلاثي: نهج، والجمع مناهيج، ومناهج، ومعنى الفعل "نهج": اتبع، أو سلك، و"المنهج": يعرف على أنه الطريق الواضح البين القويم، والنهج هو الطريق المستقيم. وبالنسبة للفظة: "المنهاج" المشتقة أيضًا من الفعل "نهج"، فهي تعني خطة مُعدة بشكل مُسبق، ولقد جاءت هذه الكلمة في القرآن الكريم في سورة المائدة الآية رقم (48): " لكل منا جعلنا منكم شرعة ومنهاجًا".

ويعود أصل كلمة méthode الفرنسية إلى الكلمة اللاتينية méthodus التي يعود أصلها هي بدورها إلى الكلمة اليونانية methdos، والمكونة من كلمتين هما meta وتعني: (ما بعد، ما وراء، ما يلي، ما يواكب) وكلمة hodos تعني: (الطريق)، ويعني المنهج حسب هذه الاشتقاقات اللغوية الطريق المرسوم سلفا، والذي يقود إلى النتيجة.

**اصطلاحا:** يعرف المنهج بأنه: " فن التنظيم  الصحيح لسلسلة من الأفكار، إمّا من أجل  الكشف عن الحقيقة حين نكون بها جاهلين، وإما من أجل البرهنة عليها للآخرين وتعليمهم إيّاها حين نكون بها عارفين". ويعرف كذلك على أنه: " الترتيب الصائب للعمليات العقلية التي نقوم بها بصدد الكشف عن الحقيقة والبرهنة عليها". ويعرفه عبد الرحمن بدوي بأنه: " الطريق المؤدي إلى الكشف عن الحقيقة في العلوم، بواسطة طائفة من القواعد العامة تهيمن على سير العقل و تحدد عملياته حتى يصل إلى نتيجة معلومة"

والمنهج في اللغة الفرنسية حسب قاموس "لاروس" هو: أ) مجموعة مبادئ وقواعد ومراحل منظمة منطقيا تشكل وسيلة لبلوغ نتيجة معينة. ب) هو طريقة تقنية لإنجاز فعل أو عمل أو نشاط معين. ج) هو مجموعة قواعد تسمح بتعلم تقنية معينة أو علم ما.

**ثانيا: مفهوم المنهجية**

هي ما يقابلها باللغة الفرنسية (Méthodologie) وهذا المفهوم مركب من كلمتين Méthode و تعني المنهج (الطريقة) وlogie و تعني علم، ومن خلال التحديد اللغوي لمفهوم المنهجية يتجلى لنا واضحا بأن المنهجية اصطلاحا هي عبارة عن ذلك: " العلم الذي يهتم بدراسة المناهج أي أنها علم المناهج(علم طرق البحث العلمي)". أو بتعريف آخر تعني: " البحث  في  أيسر  الطرق  للوصول إلى المعلومة مع توفير الجهد و الوقت، وتفيد كذلك معنى ترتيب المادة المعرفية و تبويبها وفق أحكام مضبوطة".

**ثالثا: الفرق بين المنهج والمنهجية**

يمكن التمييز بين المنهج والمنهجية استنادا إلى الاعتبارات التالية:

ــــ إن المناهج  وصْف لأعمال العلماء والفلاسفة المتقدِّمين، وطرائق بحوثهم وأساليبهم، ومصطلحاتهم في العلوم، أما المنهجية فمجموعة معايير وتقنيات ووسائل يجب اتباعها قبل البحث وفي أثنائه.

ــــ إن مناهج الدراسة تختلف من علم إلى آخر، فالفلسفة لها مناهجها، وللأدب مناهجه، وللتاريخ، والبيولوجيا، والرِّياضيات، أما المنهجية فواحدة عموما.

ــــ إن المناهج تُطرح عادة للنقد والتقويم، فيفصل ما لها وما عليها، وأيها أوْلى بالاتِّباع، وما المنهج المناسب من الدِّراسات، أما المنهجية فهي بمثابة معايير وتقنيات يجب التزامها لتوفير الجهد، وعدم إضاعة الوقت، وتسديد الخُطى على الطريق العلمي الصحيح.

ــــ إن المناهج مرتبطة بالمنطق وطرق الاستدلال والاستنتاج، ولذلك فهي تتطوَّر وتتعدَّل من حين لآخر، أما المنهجية فأضحتْ - عمومًا - جملة قواعد ثابتة.

ــــ المنهجية هي أشمل من المنهج، ففي البحوث العلمية نستخدم مفهوم المنهجية في حال اعتمادنا على مجموعة من المناهج في إطار التكامل المنهجي، ونستعمل مفهوم المنهج في حالة اعتمادنا على منهج علمي واحد.

وما يمكن أن نستنتجه هو أن المنهجية أشمل و أعم من المنهج، وما هذا الأخير سوى جزء لا يتجزأ من المنهجية. فالعلاقة بين المنهجية والمنهج كالعلاقة بين الكل والجزء.

**رابعا: العلاقة بين الفلسفة والمنهج**

إن الفيلسوف كان يلجأ دوما الى المنهاج إن لم نقل الى مناهج، إما من أجل الكشف عن الحقيقة وحل الاشكالات، وإما من أجل إقناع الآخرين بما توصل اليه من نظريات، غير أن هذا اللجوء كان تارة مصرحا به، بحيث يعمد الفيلسوف الى تبيان المنهج الذي قاده الى بلوغ معرفة ما، وتارة يكون بشكل ضمني، وبالتالي يفسح المجال لاجتهادات القارئ قصد استخراج نوعية المنهج المعتمد.

والفلسفة لم تعرف عبر تاريخها منهجا واحدا شاملا سلكه كل الفلاسفة في تشييد معارفهم أو الدفاع عنها، بقدر ما أن هنالك مناهج مختلفة ومتنوعة، يقول كارل بوبر في هذا السياق: "إن الفيلسوف ليس ملزما على غرار العالم بإرجاع كل شيء إلى الظواهر المحسوسة الخاضعة للملاحظة، وهذا يعني أنه ليس ملزما بأن يقتصر على المنهج التجريبي"، فهذا الأخير يعتبر بأنه يوجد من المناهج التي يمكن أن يستخدمها الفيلسوف بقدر ما يريد، فالمهم هنا هو أن تكون لديه مشكلة تستحق النظر، وأن يحاول صادقا حلها، وهو ما ذهب اليه باسكال أيضا حيث تحدث عن مناهج الفلسفة بصيغة الجمع قائلا: " إن هنالك من المناهج، أي الطرائق التي ينبغي أن نبتدعها بقدر ما يوجد من مشاكل نسعى لحلها".  
ولما كانت الفلسفة اليونانية محطة أساسية من تاريخ الفلسفة فلابد من الوقوف عند بعض أعلامها أمثال سقراط، أفلاطون، وأرسطو، فسقراط قد اعتمد عدة مناهج، وأسس لها في طريقة تفلسفه ولعل أشهرها المنهج التوليدي إذ نجده يقول في هذا الصدد: "أنا أولد الأفكار كما كانت تولد أمي النساء الحوامل"، وهي طريقة في بناء المعرفة تعتمد على منهجية طرح الاسئلة، اذ كان سقراط يلجأ دوما الى خلق نقاش مع محاوريه حول قضايا كانت تبدوا لهم واضحة ولا تحتاج المساءلة، فيبدأ في التساؤل حولها وهو ما عرف أيضا بمنهج التهكم قصد استخراج المعرفة من محاوريه وجعلهم يقتنعون بما كان يصبوا اليه، هذا

بالإضافة الى كونه اعتمد منهجا آخر عرف بمنهج التحليل اللغوي، اذ حاول سقراط في العديد من محاوراته هدم الشكوك السفسطائية وأغاليطهم بالوقوف عند دلالة العديد من المفاهيم الأخلاقية والسياسية كالعدالة والفضيلة والصداقة وغيرها من المفاهيم. في حين أن افلاطون وبالإضافة الى المناهج التي اعتمد عليها معلمه سقراط فقد اشتهر بممارسته لفن الجدل، حيث حدد افلاطون الجدلي بأنه: " ذلك الذي يجيد فن السؤال والجواب وبصيغة أخرى ذلك الذي يتقن فن الحوار"، كما وظف أسلوب المثال اذ نجده يشبه رجل السياسة في كتابه الجمهورية بذلك النساج الذي ينسج بين خيوط الأثواب.  
أما أرسطو فقد اشتهر وعرف بطريقته البرهانية، وخصوصا القياس الذي يكون حسبه من مقدمات صادقة أولية وهي مقدمات تصدق بذاتها لا بغيرها، كأن نقول: كل انسان فان، سقراط انسان، سقراط فان، بحيث يتم التصديق بالنتيجة المتوصل اليها عن طريق الاقناع دون تردد ما إن نسلم بصحة المقدمة والتي يشترط صدقها منذ البداية.

هكذا نخلص مع أعلام الفلسفة اليونانية الى نتيجة مفادها بأن المنهج والفلسفة كانت بينهما علاقة وطيدة، إذ أن كل فيلسوف اشتهر بمنهج وبطريقة معينة في البحث والتبليغ، إلى درجة يمكن القول معها بأنه لا يمكن فهم الأنساق الفلسفية لهؤلاء الفلاسفة بمعزل عن معرفة المناهج المؤدية اليها، فيا ترى هل حضي المنهج بنفس الاهتمام في الفلسفة الحديثة ؟

إن ما يميز الفلسفة الحديثة عن سابقاتها من الفلسفات وخصوصا الفلسفة اليونانية كونها جعلت من الذات الانسانية محور اهتمامها، ونزعت عنها كل وصاية، فأصبح الانسان سيد نفسه وسيد العالم، من هنا كانت الحاجة الماسة لدى الانسان لإيجاد كل الوسائل المتاحة والممكنة للسيطرة على الطبيعة والتحكم فيها. وفي هذا السياق بالذات ظهرت العلوم بشتى أنواعها، وظهرت معها الحاجة للمنهج بشكل أكثر الحاحا مما سلف، إذ كان من المفروض على كل علم أراد الاستقلال بذاته عن الفلسفة أن يجد لنفسه موضوعا ومنهجا يخصانه، وهو ما فرض على الفيلسوف أيضا أن يفكر في منهج خاص بقضاياه، يحاكي منهج العلماء، وقد كانت فلسفة ديكارت في هذا الإطار بمثابة استجابة لهذا المطلب، إذ خصص هذا الأخير كتابا بعينه تحت عنوان: **(مقال عن المنهج)** لتبيان الخطوات الأساسية التي يتعين على كل باحث في مجال الفلسفة خاصة والمعرفة بشكل عام اتباعها قصد بلوغ الحقيقة وتحاشي الوقوع في الزلل، فهذا الأخير حصر أفعال العقل في فعلين أساسيان هما: الحدس والاستنباط، وعرف الحدس كمنهج سبق

وأن اعتمد من قبل فلاسفة آخرين أمثال أفلاطون بكونه الرؤية المباشرة للموضوع، في حين عرف الاستنباط بأنه انتقال من قضية الى أخرى تلزم عنها بالضرورة، وهو فعل يعتمد لمعرفة الأشياء المركبة والتي تحتاج الى الاستدلال بحيث يتم بصدده تطبيق ثلاث قواعد أساسية وهي: التحليل والتركيب والمراجعة، هكذا تكون القواعد الأربع: البداهة المرتبطة بفعل الحدس ثم التحليل والتركيب والمراجعة المرتبطة بفعل الاستنباط بمثابة منهج صارم يمكن اعتماده لبلوغ الحقيقة المطلقة واليقينية حسب ديكارت ،وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن المنهج في الفلسفة الحديثة أصبح يحضى بأهمية قصوى بل أنه أصبح أساسا ومرجعا لقيام أي فلسفة ممكنة فلا تفكير بدون منهج.

لكن مع تقدم العلوم التجريبية خلال القرن التاسع عشر، وسيادة النزعة الوضعية أصبح المنهج وسيلة تستخدم ضد الفلسفة، خصوصا المنهج التجريبي الذي تم توظيفه من قبل رواد الوضعية المنطقية كمعيار للفصل بين الفلسفة بوصفها كلاما فارغا ودون معنى وبين النظريات العلمية، إلا أن هذا التصور نفسه لم يصمد طويلا في وجه الانتقادات التي قدمها معاصروه، ونخص بالذكر تصور كل من كارل بوبر وطوماس كون وكذا بول فيرباند الذي كان يدعو الى الفوضى المنهجية بقولته الشهيرة: " في العلم كل المناهج ممكنة".

من كل ما سبق يمكن أن نستنتج أن العلاقة بين الفلسفة والمنهج هي علاقة وطيدة يطبعها التماهي والاتصال، إذ لا يمكن للفلسفة أن تستغني عن المنهج في تبليغ نظرياتها أو في البحث والتنظير، كما لا يمكن للمنهج أن يقوم دون أساس فلسفي، ولعل هذا الارتباط الوثيق بين الفلسفة والمنهج هو ما ساعد المناهج على البروز أكثر والتجدد باستمرار، في الحين نفسه ساعد الفلسفة على التقدم إن كان بإمكاننا الحديث عن تقدم في الفلسفة، فظهور منهج جديد يساعد على بناء فلسفة جديدة، كما أن ظهور فلسفات جديدة تحتاج للتبليغ والتبسيط وهذا ما يؤدي بدوره الى ابتكار مناهج جديدة وملائمة لذلك.